



المكانة التجارية لمملكة تلمسان أواخر العهد الزياني
The commercial importance of Tlemcen kingdom at the end
of the Zianid era

دريس بن مصطفى

جامعة سعيدة، الجزائر

driss.benmostefa@yahoo.com

تاريخ الإيداع: 2020/03/12 تاريخ القبول: 2020/03/28 تاريخ النشر: 2020/03/31

الملخص:

يتناول المقال بالدراسة الأهمية التجارية لتلمسان عاصمة المملكة العبودية وحاضرة المغرب الأوسط، وقد بحثنا من خلاله في الجذور التاريخية لهذه الأهمية لنبين أن المدينة والمنطقة ككل تمتلك طقوسا وأعرافا تجارية منذ القدم، ولقد ركزنا مجال البحث في أواخر العهد الزياني مع استحضار جوانب تلك الأهمية وعواملها انطلاقا من افادات المؤرخين والرحالة الذين أسهبوا في وصفها وذكر جوانب حسناتها وأهميتها، فقد جعل منها موقعا وجمالياتها ملتقى للتجار من دول عديدة وخاصة من جنوب أوروبا (شبه الجزيرة الإيطالية وشبه الجزيرة الأيبيرية) فأكسب ذلك تلمسان حيوية تجارية واقتصادية بما تتلقفه وتصدره من سلع وعلى رأسها التبر القادم من بلاد السودان الغربي.

الكلمات الدالة:

تلمسان، المغرب الأوسط ، التجارة، العهد، المكانة، الزياني.

Abstract:

Enter This article is about the comercial importance of Tlemcen, the capital of the zianid state and the capital of the central Maghreb in the Middle Ages, we present the aspects of this importance and these factors, and all these are based on the statements of historians and travelers and geographers who described these importance .This has made Tlemcen a meeting and transit point for the incoming traders of many countries, and especially from Northern Europe, this has given Tlemce a great economic vitality.

Key Words:



Tlemcen; commercial; importance; zianid; state.

1. مقدمة:

ظلت تلمسان في العصر الوسيط عقدة ونقطة مفصلية لطرق مواصلات القوافل التجارية بين التل والصحراء من جهة، وبين تجار أوروبا وتبر السودان الغربي من جهة، ولقد تغنى الكثير من الأدباء والشعراء بها وبما امتلكته من جمالية اكتسبتها عبر تاريخها الطويل، كما تفنن وأسهب الرحالة والجغرافيون في وصفها مدينة وأحوازا، فقد تمتعت هذه المدينة عاصمة الدولة الزَيَّانية وحاضرة المغرب الأوسط خلال حكم بني عبد الواد بأهمية تجارية بالغة نابغة من موقعها الجغرافي المطلّ على المتوسط، وبما تزخر به سواحلها من مراسي ذات أهمية بالغة ساعدت على اجتذاب عدد من السفن المختلفة المشارب وتنشيط عمليات التبادل التجاري للمنطقة، كما أن امتداد دواخلها في الصحراء الإفريقية جعل منها قفلا لها ومبتدأ للطريق التجاري نحو السودان الغربي مصدر التبر⁽¹⁾ الذي كان مطمعا لتجار أوروبا، وجعل من المدينة مركزا وسيطيا في تجارته، ومن بين أولئك على سبيل المثال لا الحصر من المؤرخين لسان الدين بن الخطيب والمقري التلمساني ومن الرحالة مارمول كربخال والحسن الوزان أو ليون الإفريقي اللذين أسهبا في وصف ما تحويه من صنائع موزعة على أزقتها، ومجتمعها المتشكل من طبقات.

ترى ما مواطن هذه الأهمية وما انعكاساتها على المدينة والمنطقة ؟
وما تأثير التقلبات السياسية على التجارة بالمنطقة ؟.

2. أصول الحيوية التجارية لتلمسان والمغرب الأوسط:

تلمسان مدينة عربية اختلقت تسميتها باختلاف الأزمنة والشعوب التي عاشت على أرضها، وكانت منذ العهد المرابطي قبلة للتجار، ورغم ما أحدثه الموحدون ببلاد المغرب ككل من دمار وتخريب في محاولات افتكاكها من أيدي المرابطين، إلا أنهم وبعد فترة قاموا باستصلاح ما خرّبوه وإحياء ما اندثر فيها وترميم أسوارها، فقد شعر عبد المؤمن بن علي بالجرم، فجلب إليها لذلك البنائين من الأماكن البعيدة، وكان المهدي بن تومرت بعد أن استوثق من سكّان المنطقة، دعاهم إلى القيام معه أولا على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير، ونهاهم عن سفك الدماء، ولم يأذن لهم فيها، وأقاموا على ذلك مدة⁽²⁾، وعلى عهد الخليفة أبي يعقوب لم يبق بجميع المغرب مختلف عليهم، ولا معاند لهم، ودانت لهم -أي للموحدين- جزيرة الأندلس بأسرها، وكثرت في أيامه الأموال، واتسع الخراج⁽³⁾، ولم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعيادا وأعراسا ومواسم من كثرة خصب، وانتشار أمن و درور أرزاق واتساع معاش، لم ير أهل



المغرب أياما قط مثلها، ليستمر هذا صدرا من إمارة أبي يوسف، هذا الأخير الذي أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم⁽⁴⁾، مما يدل على رواج التجارة، وبمرور الوقت استطاع وخلفاؤه التبحر في العمران، لتشهد بلاد المغرب تطورا هاما وخاصة تلمسان التي أصبحت من أعزّ معاقل المغرب وقبلة للجميع، يتوافد إليها الناس من كل الجهات كما قال عبد الرحمن ابن خلدون، الأمر الذي مهد لبني عبد الواد ليتخذوها عاصمة لهم ودار ملك منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي⁽⁵⁾.

عملت الدولة الموحدية على غرار سابقتها المرابطية على نشر الأمن والاستقرار داخل المجتمع، الأمر الذي ساهم في ازدهار وانتعاش التجارة وخاصة الداخلية، إذ عملت على حماية الطرق التجارية من جميع المخاطر التي تهددها وتهدد أمن التجار، فسّلت سبل التجارة وأقامت الآبار والاستراحات في طرق القوافل التجارية، وأنشأت المنارات في الثغور، واهتمت ببناء الأساطيل البحرية من أجل تشجيع التبادل التجاري بين مختلف الجهات، لكن وحسب (ما لاتري) أن هذه العلاقات التجارية بين الموحدين وتجار أوروبا لم تتواصل على نفس الوتيرة التي كانت عليها مع المرابطين وخاصة تجار بيزا إلا على عهد عبد المؤمن الذي جدّد الضمانات التي كانت على أيام المرابطين، ففي سنة 1166م تشير الوثائق إلى وجود قنصل (كوكو قريفي) (cocco griffi) الذي اشتغل كقنصل في قسنطينة⁽⁶⁾.

لقد كانت تلمسان حينها أيضا من أهم النقاط التجارية المحورية التي تنطلق من فاس نحو سبتة أو تلمسان أو سجلماسة وغيرها من المدن، وفي هذا يقول ابن خلدون: «ومن هذه القصور قبلة تلمسان، وعلى عشر مراحل منها قصور تيكارين وهي كثيرة تقارب المائة، وفيهم الرّجالة والخيالة وأكثر معاشهم من بلح النخل، وفيهم التجار إلى بلاد السودان وضواحيهم كلها مشتاة للعرب⁽⁷⁾». وبقدر ما كان الاهتمام بالتجارة الداخلية وتطويرها عند الموحدين، كان كذلك بالتجارة الخارجية أيضا إذ نشطت نشاطا ملفتا للانتباه، فقد اجتهدوا ووضعوا لها أنظمة تضبطها، وعقدوا من أجلها المعاهدات مع البندقية وجنوة ومرسيليا وقطالونيا وبيزة، وغيرها من الدول والمدن الأوروبية الساحلية.

لقد انتعشت التجارة أيّما انتعاش، وهذا ما تثبته جملة المعاهدات الخاصة بالسلم والتجارة، والتي أبرمتها الدولة الموحدية مع المدن والإمارات الأوروبية طيلة القرن السادس وبدايات القرن السابع الهجريين، وبالمقابل فقد عرفت أوروبا انتعاشا اقتصاديا وتجاريا



ملحوظا بسبب متاجرتها مع بلاد المغرب، وبسبب ما كانوا يجلبونه منها من معادن وعلى رأسها النحاس إضافة إلى الزيت والصوف والدباغ والفواكه المجففة، وكذا السلع النادرة القادمة من بلاد السودان الغربي، ومن هنا نستخلص أن بلاد المغرب كانت تعيش رخاء اقتصاديا وتجاريا في ظل حكم الموحدين، وأن بلاد المغرب بشكل عام و المغرب الأوسط بشكل خاص لعبت دورا رئيسا في المبادلات التجارية بين السودان الغربي وأوروبا بفضل تحكم الموحدين في طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء وفي مراسي الغرب الإسلامي المختلفة فاستطاعت بذلك حماية التجارة البرية نحو السودان الغربي والبحرية انطلاقا من مراسيها نحو جنوب أوروبا، فظلت تلمسان مقصدا لتجار الآفاق بما تحتويه من خيرات وصناعات متأصلة بها، فكما وصفها ابن الخطيب فهي ⁽⁸⁾ «خزانة زرع، ومسرح ضرع، فواكهها عديدة الأنواع، ومتاجرها فريدة الانتفاع، ويرانسها رقاق رفاع».

3. عوامل ازدهار التجارة ومظاهر حيويتها بمملكة تلمسان:

وصف المدجن تلمسان بأنها ⁽⁹⁾ «مدينة كثيرة الحرث والنسل والتجارة والحركات، مدينة قائمة بنفسها مستغنية عن غيرها من المدن والحصون» ⁽⁹⁾ فعلى المستوى الداخلي وجدت مجموعة من المدن التجارية على غرار ندرومة (مدينة قديمة أسسها الرومان في سهل فسيح موقعها شبيه بموقع روما ومنها اتخذت اسمها) والتي كانت تشتهر حينها بصناعة الأقمشة القطنية، وكان جل أهلها من التجار يتجرون في الجزائر وتلمسان مقابل هدايا ملك تلمسان على حد تعبير مارمول¹⁰، وتاريخ المغرب الإسلامي مليء بمثل هذا النوع من التبادل، كالملاح الذي كان ينقل من بلاد المغرب ليستبدل بمقداره تبرا، كما أشار الوزان ومارمول في عدة مواقع لما كان يتم تبادله مع تجار أوروبا من مواد بطريقة المقايضة. ومن مرسى أرزيو الجديدة التي كان يرسو بها عدد من سفن النصارى محملة ببضائع أوروبا على عهد بني زيان¹¹ وميناء مملكة تلمسان - وهران والمرسى الكبير (كان من أكبر المراسي في بلاد المغرب وفي العالم حسب الوزان فكانت ترسو به مئات المراكب والسفن الحربية بكل سهولة ويجعل السفن في مأمن من كل عاصفة وإعصار) - اللذين كان يختلف إليهما عدد وافر من تجار جنوة والبندقية، ويتعاطون هناك تجارة نافقة عن طريق المقايضة، ويسقوطهما في يدي الملك الكاثوليكي فرناندو، تعرضت مملكة تلمسان لخسارة عظيمة¹²، وكان سكان بعض الموانئ يقايضون مع الأوروبيين في عدد من البضائع مقابل ما عندهم من حنطة وأغذية، وكانت سفن البندقية التي تأتي إلى بادس مرة أو مرتين في السنة حاملة بضائعها، تتجر فيها بالمبادلة والبيع نقدا،



بالإضافة إلى أنها تنقل البضائع وحتى الركاب المسلمين أنفسهم من هذا الميناء إلى تونس وأحيانا إلى البندقية أو حتى الإسكندرية وبيروت¹³.

إضافة إلى ما ذكرنا من مراسي نجد ميناء هنين الصغير المحصن من كلا الجانبين ببرجين قوين¹⁴ ومدينة هنين التي كانت أهلة بالتجار والصناع، تنحدر إليها سفن البندقية كل سنة عند ذهابها إلى تلمسان، خاصة منذ أن احتلّ الكردينال خيمينيس وهران والمرسى الكبير، وكان تجار تلمسان يذهبون إليها ليتعاملوا مع تجار البندقية، زيادة على هذا فقد اشتهرت بصناعة الألبسة والأقمشة الجميلة من القطن¹⁵، ومما يؤكد أهميتها التجارية أنه رغم خلوها من السكان بشكل كاد يكون كلياً عند احتلال وهران، إلا أنّ ملك تلمسان أرسل إليها حامية لتأمين التجارة بها، أما السبب الذي أدى إلى تراجع هذه الأهمية التجارية فيعود إلى طمع سكانها، إذ لم يكتفوا بما يجنونه من تجارتهم، وأصبحوا يأوون القراصنة ويخرجون معهم لشنّ الغارات على شواطئ إسبانيا مما اضطر الملك الأسباني إلى نهبها ثم تدميرها لتلافي النفقات فحطمت أسوارها وبروجها وحرقت الديار وخرّبت¹⁶.

ومن هنا بدأ أمراء بني زيان الأواخر يزعمون أنهم فقراء، وأنهم في حاجة إلى المساعدة للمحافظة على الجهاد ضد المسيحيين، الأمر الذي سيسمح لهم بجباية الضرائب وواجبات الجمرك في الدخول والخروج، إلى غير ذلك من التكاليف المالية، فكان لهم مركز جمرك بوهران تستخلص فيه هذه الواجبات، لأن سفن البندقية كانت ترسو فيها كل سنة قصد الاتجار، ولم يكن إيراد الأمير آنذاك سوى ستمائة ألف ريال يخصص نصفه لنفقة الجنود والنصف الآخر لنفقة قصره ويدّخر الباقي لضروريات الحرب، وقد تكاثر الإيراد جدا منذ ذلك العهد لأنه بالرغم من فقدان جمرك وهران، فإن جمرك الجزائر قد تضاعف حتى أنه ليفوق إيراد الدولة بكاملها¹⁷.

كانت تتواجد بتلمسان المدينة والعاصمة جملة من الفنادق والتزل تخضع لنوع من التخصص حسب البضاعة أو حسب جنسية التجار المترددين عليها¹⁸، بنيت بالقرب من الأسواق أو الأماكن التي تعرض فيها السلع للبيع أو المزداد، وفي بعض الحالات نجدها في الأرياض والنواحي، ونجد بعضها عاما لا يخضع لأي نظام، وهذا ما قصده الوزن بالمدشر الكبير الموجود بالقرب من ساحل البحر بجزيرة جربة الذي يقطنه التجار الغرباء من مسلمين ونصارى¹⁹.



أخذت الفنادق آنذاك أسماء مختلفة، ففي تلمسان يورد لنا الوزن بعض أسمائها مثل فندق الشماعين وفندق المجاري، وفي مدينة وهران دار الجنويين، ذلك الفندق الخاص بتجار جنوة، وغالبا ما كانت تشاد بالقرب من الفنادق كنائس خاصة بالمسيحيين والنصارى، والتي وجدت بها حتى قبل نشأة الدولة الزيانية وهذا ما ندركه من خلال كتاب البغية⁽¹⁾ وبها آثار عادية، وكنائس حتى الآن بالنصارى معمورة، وأكثر ما يوجد فيها الرّكاز في تلك الآثار⁽²⁾ وكانت تتواجد بالقرب منها أيضا المقابر الخاصة بهم، هذا ما تواجد بتلمسان الزيانية، وربما كان المراد من وراء ذلك الحرص على عدم اختلاط المسيحيين بأهل تلمسان، إذ نجد سلاطين المملكة يمنعونهم حتى من الذهاب إلى الحمامات العمومية الخاصة بأهل المدينة باستثناء البنادقة²¹.

منذ نهاية القرن 6هـ/12م وبداية القرن 7هـ/13م تقاطر على الدولة الزيانية عدد هام من تجار أوروبا وخاصة من فرنسا وأراغون وقشتالة وأقاموا بمدينة وعلى رأسها تلمسان وهنين ومنها تابعوا عملياتهم التجارية، لأن معظم التجار المسيحيين كانوا ينشطون بصفة خاصة في عاصمة الدولة -تلمسان-22 وقد سيطر الايطاليون على نقل وتوزيع البضائع والسلع على كل المتوسط، لأن علاقاتهم مع المنطقة كانت عميقة تعود إلى عهد الموحيدين، إذ عملت تلك الإمارات وعلى رأسها جنوة على تمتين علاقاتها التجارية مع الموحيدين منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر ومن ثم الإرساء بميناء وهران سنة 1179م²³، فعملت بعدها على تطوير تلك العلاقات حتى أصبحت تجارة زاهرة وخاصة في الربع الأول من القرن 7هـ/13م⁽²⁴⁾.

4. أوضاع المغرب الأوسط أواخر القرن (15) وانعكاساتها على الواقع التجاري لمملكة تلمسان: نجد معظم الرحالة يبدؤون بوصف تلمسان من الأطراف نحو المركز أو من الأحواز(الحوز لغة من حاز يحوز أي امتلك، ومنه جاءت كلمة الأحواز في كتب التاريخ والرحلة العربية الوسيطة، والتي قصد بها أصحابها الأراضي التابعة لمنطقة أو مدينة معينة) إلى المدينة، ومن هذا المنطلق ارتأينا أن نسلط الضوء على تلمسان وأحوازها واستخلاص دورها التجاري والاقتصادي وكذا المراسي الهامة مركزين على كتاب وصف إفريقيا لحسن الوزان الذي عاش في أواخر عمر الدولة وكان قد زار المدينة وأحوازها ووصفها وصفا دقيقا مبتدئا من الغرب منتقلا شرقا وكتاب إفريقيا لمارمول كاريخال المتأخر عنه والذي لم يخالفه كثيرا في وصف المنطقة اضافة الى كتاب نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار (رحلة حجازية) للمدجن، ومصادر أخرى تطرقت للموضوع سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .



وحسب الوزان الذي عاصر آخر ملوك بني زيان فإنه يرى بأن مملكة تلمسان تمتد من واد - زا - ونهر ملوية غربا - إلى الوادي الكبير شرقا (أي وادي الصومام) ومن المتوسط إلى صحراء نوميديا جنوبا⁽²⁵⁾، أي على امتداد 380 ميلا من الشرق إلى الغرب، بينما صححها المعلقون في الترجمة الفرنسية ب 580 ميلا أي ما يعادل 930 كيلومترا، والذي يعتبره أحمد حجي بعيدا عن التقدير الحالي للميل والمقدرب 1852 مترا، في حين تضيق من الشمال إلى الجنوب حتى لا تكاد تتعدى خمسا وعشرين كيلومترا في بعض النقاط من البحر إلى تخوم صحراء نوميديا وهذا ما يجعله الوزان عاملا من عوامل تعسف الأعراب القاطنين بالجزء المجاور للصحراء، وجعل معظم السبل المؤدية منها وإليها غير آمنة، وهذا ما يؤكد المدجن حين قال: ⁽²⁶⁾ «ملك بني عبد الواد ملك مبارك، ولكن هو كثير المصائب من أجل تبديل ملوكها، يذيق بعضهم بأس بعض وتضعف من ذلك المملكة والحكم، ويكون فيها قطع الطريق، وتنحصر الناس عن الأسفار ويضيق عليهم الحال والبر برمتسع ما تعرف الناس بعضهم بعضا فيه، وكذلك جميع هذا البرّ العدوي المذكور كثير الحرميات والقطاع في جميع الأقطار من هذا البر المذكور من بلاد بني مرين إلى آخر مصور طرابلس إلى برقة.....»⁽²⁶⁾، ومع ذلك ظلت المملكة تشهد حركية تجارية لقربها من نوميديا ولكونها تمثل نقطة مفصلية في الطريق المؤدية إلى بلاد السودان الغربي⁽²⁷⁾.

لقد كانت تلمسان مدينة زاهرة عبر تاريخها الطويل، وشهدت كما سبقت الإشارة مراحل تكوّن نتيجة الاضطرابات والتحوّلات السياسية لتستعيد فيكون ذلك مجرد ازِمات عابرة، ومن ذلك ما حدث في عهدها الزَيَّاني وخاصة على عهد أبي تاشفين الأول⁽²⁸⁾، فأصبحت على عهده دولة عظيمة، إذ شيد القصبات والأسوار والمساجد، وزين البلاد فكانت مملكة عظيمة حتى كان يفتخر على ملوك العرب بالمال والخزائن والحرث والنسل وزينة الثياب وكنوز الذهب والفضة والذخائر من الجوهر النفيس واللؤلؤ والزمرد والقدرة الواسعة بالمال والعبيد⁽²⁹⁾، فلا إفريقيا ولا أوروبا تملك أبوابا غنية كبابي الجزائر: باب البحر وباب البر، لأن الميناء يكون عادة غاصّا بالسفن المسيحية التي يسوقها القراصنة محملة بالناس والبضائع وتدخل من باب البر باستمرار أعداد كثيرة من الجمال المحملة بكل ما هو نفيس في بلاد البربر ونوميديا وليبيا وبلاد السوس وإيراد هذا الباب وحده يساوي ما يزيد على مليون مثقال من الذهب في السنة⁽³⁰⁾.

إن انعدام الأمن في الطرقات التي كانت تؤدي إلى دواخل الصحراء الإفريقية بسبب الأعراب الذين كانوا يترصّون بكل من يمر عبرها، وجهل الأوروبيين بها حتم عليهم التعامل مع إمارات المغرب الإسلامي وعلى رأسها تلمسان كوسيط تجاري، أضف إلى ذلك المخاطر الطبيعية



وعدم معرفة أولئك التجار بالمسالك التي قد تفضي بهم إلى الضلال والتهيه، وفي هذا الشأن يقول المدجن⁽³¹⁾ "الخوف والخلل وبعد العماير وهذا يأتي من وسع البر المتسع بر متصل مثل البحر المحيط، بعيد المساييف وقليل الماء كلها صخرة"⁽³¹⁾، فنجد أن أهل المغرب الإسلامي أنفسهم كانوا يضعون علامات تدلهم على تلك السبل، ومن ذلك شركة المقريين بالمغرب الأوسط، التي اشتهرت بالتجارة ومهدوا-أي المقريين- طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار واتخذوا طيلا للرحيل وراية تتقدم عند المسير⁽³²⁾، وقد يعود ذلك إلى أسباب دينية واقتصادية نظرا للخير الذي كانت تجلبه تلك التجارة، وكان حقا سببا في ظهور المطامع الرامية إلى تملك تلمسان.

ونجد الحسن الوزان يورد لنا مثلا عن منطقة أنقاد⁽³³⁾ مبتدأ مملكة تلمسان غربا، وهي عبارة عن سهل قفرو عريابس لا ماء فيه ولا شجر، تمتد على نحو ثمانين ميلا طولا وما يقرب من خمسين ميلا عرضا، أما اليوم فهي إقليم من أقاليم المغرب الأقصى الشرقية وإليه تنتمي مدينة وجدة التاريخية التي تبعد نحو أربعين ميلا جنوب البحر المتوسط، وبنفس المسافة عن مدينة تلمسان⁽³³⁾ الواقعة غرب الإمارة العبدوادية والتي كانت مأوى لعصابة لصصوص من الأعراب الذين كان يزداد خطرهم خاصة في فصل الشتاء بعد أن يرحل الأعراب المستأجرون للحفاظ على الأمن نحو نوميديا بالشرق⁽³⁴⁾، ويؤكد ذلك كريخال بقوله: "فقد كان بها الكثير من الأعراب المتنقلين المتسكعين يمتنون السلب والنهب في المسالك الكبرى ومن أجل ذلك كان المسافر يلزم على تأدية مبلغ من المال لأول رئيس جماعة يصادفه ليسلم له راية صغيرة على رأس رمح حتى لا ينهب عبر منطقته كلها، ويفعل نفس الشيء لدى الوصول إلى آخر ليتم المرور دون خطر"⁽³⁵⁾، ناهيك عن ما يحقق بالمسافر عبرها من مخاطر، "فهي كلها مساييف وخلوات، فيها خوف وعطش ورمال وفياف منقطعة"⁽³⁶⁾ ونفس الشيء يمكن قوله بالنسبة لدواخل أوروبا التي تميزت في تلك الفترة بصعوبة وخطورة وعدم أمن مسالكها فانقطعت الطرق التجارية وتوقف التجارة الداخلية والخارجية بسبب الجيوش القشتالية والبرتغالية والليونية والأرغونية.

انعكست هذه الوضعية الصعبة بالتفع على تلمسان ونواحيها، إذ تواجدت بالمغرب الأوسط مدن تجارية على غرار مدينة تلمسان التي احتوت على ما يعرف بالقيصرية أو القيصرية، التي هي عبارة عن مجموعة من البنايات على شكل رواق يحتوي محلات تجارية وورشات ومخازن ومساكن في بعض الأحيان، وتختلف القيصرية عن السوق العادية بشساعة



مساحتها واشتمالها على مجموعة أروقة مغطاة، في حين يشتمل السوق على رواق واحد، وفيها كان يتم عقد الاتفاقيات بين التجار سواء المسلمين مع بعضهم البعض أو بينهم وبين المسيحيين، ومن أمثلة تلك القيساريات، تلك التي أقامها أبو حمو موسى الأول على مساحة كبيرة من الأرض لتكون السوق الرئيسية بالمدينة، وكانت تعلق أسوارها رايات الدول المتعاملة مع الإمارة الزيانية تجارياً، مثل قشتالة أراغون ميورقة جنوة بيزة وغيرها والتي كان يقصدها التجار الأجانب بحثاً عن أهم مادة إستراتيجية قدموا من أجلها وهي التبر القادم من السودان الغربي وخاصة من غينيا، حيث يحمل تجار المملكة بضائعهم كل سنة ويأتون منها بالتبر والعنبر والمسك وسنور الزباد ورقيق السود وأشياء أخرى من بضائع البلد ويتجرون بالتبادل محققين كثيراً من الربح حتى لتكفي رحلتان أو ثلاث ليستغني التاجر، الأمر الذي يحملهم على أن يخترقوا رمال ليبيا متعرضين لأخطار عدة⁽³⁷⁾.

إلى جانب هذه القيساريات وجدت أسواق دائمة امتازت بتخصصها في بيع بضائع معينة مثل سوق العطارين والعشابين، سوق الصّاعة، سوق الحدادة، سوق النجارة، سوق الصوف وسوق الكتب وغيرها. إضافة إلى هذا نجد العامل البشري، إذ مثل التجار فئة مميزة داخل المجتمع الزياني سواء داخل المدينة تلمسان أو بالمدن الساحلية، فكانوا طيبين أوفياء في تجارتهم معترفون بالنظام والحضارة وحسن التدبير مهذبون مع الأجانب⁽³⁸⁾، الأمر الذي ساعد بدوره على استقدام التجار من كل الأصقاع.

5. طبيعة المبادلات التجارية للمنطقة:

1.5. صادرات المملكة: إن قائمة السلع وكميتها لم تكن ثابتة وقارة على مدى عمر الإمارة الزيانية نظراً لما انتابها من أحداث سياسية أثرت على رقعتها ونشاطاتها بكل أنواعها. وتأتي الجبوب على رأس صادرات المغرب الأوسط الزراعية، وتفيد المصادر بأن وهران ظلت تكتسب أهمية بالغة في تصديرها، وذلك ابتداء من القرن الرابع الهجري-العاشر الميلادي -انطلاقاً من مرسى وهران وأرزويو⁽³⁹⁾، وكذا ميناء تنس الذي كانت تحمل المراكب منه القمح إلى مناطق عديدة وبالأخص تجاه سواحل الأندلس⁽⁴⁰⁾.

كما كانت هذه الجبوب تتجه نحو سواحل شبه الجزيرة الإيطالية وخاصة جنوة والبندقية لأن أهلها كانوا يفضلون قمح المنطقة لاحتوائه على كمية كبيرة من السميد، فكانوا يصنعون منه الرغيف البحري الجاف والأطرية⁽⁴¹⁾.



كما خرجت من موانئ الإمارة الجلود والأصواف المدبوغة والضأن، التي مثلت مادة أولية للكثير من الصناعات ومنها الصناعات الجلدية والنسجية⁽⁴²⁾، وكانت تتجه خاصة نحو شبه الجزيرة الأيبيرية لتصنّع وتحديدًا إلى أشبيلية التي صارت ملتقى التجار من إيطاليا والبرتغال والانجليز والفرنسيين الذين أصبحوا يفدون عليها للحصول على ما اشتهرت به من صوف ومصنوعات جلدية إضافة إلى الشب والزئبق لصبغ المنسوجات وجالين إليها في نفس الوقت السلع الكمالية⁽⁴³⁾، واتجه الزئبق منها نحو الإمارات الإيطالية وخاصة البندقية⁽⁴⁴⁾.

اشتهرت تلمسان بصناعاتها -التقليدية- وخاصة النسجية والتي بدأت تنتعش وتزدهر ابتداء من القرن العاشر وحتى القرن الخامس عشر الميلادي، إذ كانت نافقة ورائجة، وهذا ما ندركه من خلال قول الوزان ((وكان معظم سكانها من الصناع والحاكّة ويعيش أكثر سكانها على مدخولاتهم...⁽⁴⁵⁾، وكذا قول يحيى بن خلدون⁽⁴⁶⁾)) ومن لدنهم يجلب إلى الأمصار شرقا وغرباأي البرانس والأحرار⁽⁴⁶⁾ ولعل ما دفع أهلها إلى هذا هو عدم كفاية المحصول الزراعي المحلي لسد حاجياتهم، إذ كانت أرضهم تجود بإنتاج الشعير الذي مثل معظم أكلهم⁽⁴⁷⁾ كما كانت بلاد المغرب الأوسط تصدر التمور التي تفتقدها الضفة الشمالية للمتوسط نظرا لعوامل طبيعية ومناخية على رأسها الحرارة، فكانت ذات قيمة غذائية هامة لدى الأسبان، وفي جميع المدن وكان ملك أراغون يفضلها على مائده⁽⁴⁸⁾، عموما فقد عرفت حركة تصدير الفواكه الجافة نشاطا كبيرا والتي نذكر منها الجوز والبندق والزبيب⁽⁴⁹⁾.

صدّرت موانئ المنطقة بعض الحيوانات كالخيول رغم توفرها في المنطقة-شبه الجزيرة الأيبيرية- والصقور وهذا ما نستشفه من خلال حديث الوزان لكنها كانت تتجه نحو الملوك والطبقة النبيلة فقط⁽⁵⁰⁾، كما كانت تخرج من مراسمها كميات من الشمع التي كانت تصنع من شهد النحل الذي كانت تشتهر به منطقة جبل بني بوسعيد (ليس المقصود بها المنطقة الحدودية للجزائر مع المغرب والتي لا زالت تحتفظ بهذا الاسم وإنما المنطقة الجبلية المجاورة لمدينة تنس)⁽⁵¹⁾، وكان أهالي المنطقة يتعاملون في ذلك رأسا مع التجار الأوروبيين الذين كانوا يفدون إلى مراسي المملكة.

كما خرجت من تلمسان كميات هامة من العسل الذي كانت تشتهر به مناطق عديدة من أحواضها والمناطق المجاورة لها إضافة إلى الزيت والعبيد الذين كان ملك أراغون يرسل تجارا لجليهم منها، كما مثلت منطقة مرور أو عبور للكثير من السلع التي كان يستقدمها تجارها من



دواخل إفريقيا السوداء كالتيبر والرياش والبهارات⁽⁵²⁾، فكان الايطاليون يأتون لبلاد المغرب خصوصا لشراء الذهب، فسيطروا على جزء هام من تجارته في تلمسان والمغرب الأقصى. لقد دخلت الإمارات الايطالية وخاصة جنوة في منافسة مع بيزا سردينيا وكورسيكا وصقلية، ولهذا كانت تجارتها في هبوط، ربما بسبب صعود القطلانيين الذين أقاموا علاقات طيبة مع عواهل المغرب الأوسط الذين فضلوا التعامل معهم تجاريا عن الجنوبيين، الذين وجهوا اهتمامهم وتركيزهم على التجارة مع دول المغرب بصفة عامة والمغرب الأوسط خاصة بعد المزاخمة التي شهدها من قبل القوة الجديدة وهي قوة العثمانيين الذين سيطروا على الطرق التجارية المشرقية⁽⁵³⁾، الأمر الذي دفعهم إلى التوجه نحو الحوض الغربي منه منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي لتعويض خسائرهم المترتبة عن تراجعهم وانسحابهم من المشرق، ومن ثم فستفيدهم تلمسان باعتبارها ملتقى الطرق التجارية والطريق نحو التبر خاصة.

كان العديد من التجار الايطاليين الجنوبيين يدخلون المناطق الداخلية للمغرب الأوسط مجذوبين بتجارة الذهب، وقد بلغ -أنطونيو مالفنتي- منطقة توات مارا عبر تلمسان، ونظرا للأهمية المتزايدة للتجارة مع المغرب الأوسط ولإنعاشه اياها فقد أعفى مجلس -السيينا - الجنوبي من أي ضريبة كل بضاعة للتجار الجنوبيين القادمين من المنطقة، ونفس الشيء يمكن قوله بالنسبة للبندقية التي لم تتأخر لتحقيق الفائدة من الاتجار مع تلمسان، فاجتهدت بواسطة تجارها لبلوغ ذلك، أي للتفرغ لتجارة الذهب القادم من السودان الغربي .

2.5. واردات المملكة: كانت متنوعة وغير قارة أيضا، فرغم ما اشتهرت به المملكة من وفرة في إنتاج الحبوب إلا أنها لجأت في بعض السنوات إلى استيرادها، أي خلال سنوات القحط والمسغبة⁽⁵⁴⁾، ولم تكن هذه السلع الواردة من الضفة الأخرى موجهة لتلمسان فقط، بل راعت أيضا ما تحتاجه دواخل الصحراء وخاصة السودان الغربي، التي كانت تمثل موردا هاما لتزويد تلمسان بالتبر الذي اعتبر عمود صادراتها، وفي هذا الشأن يقول مارمول⁽⁵⁵⁾ وأهم تجارتهم في غينيا حيث يحملون بضائعهم كل سنة ويأتون منها بالتبر والعنبر والمسك وسنور الزباد ورقيق السود وأشياء أخرى من بضائع البلد ويتجرون بالتبادل محققين كثيرا من الربح حتى لتكفي رحلتان أو ثلاث ليستغني التاجر، الأمر الذي يحملهم على أن يخرقوا رمال ليبيا متعرضين لأخطار عدة⁽⁵⁶⁾.



إضافة إلى العبيد والرياش والبهارات كما أشرنا سابقا، والتي تعتبر الوسيط التجاري بينها وبين أوروبا، إذ كان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع وذلك يرسل له بالجلد والعاج والتبر⁽⁵⁵⁾، كما جلب تجار تلمسان والمغرب الأوسط أقمشة الحرير من مدينة المزيّة وأنسجة الكتّان من المدن الإيطالية⁽⁵⁶⁾ التي كانت تحتكر عملية جلبها من فرنسا وهولندا، وجلب الزبانيون مادة الجوخ أو الملفّ الذي اشتهرت بصناعاته إيطاليا خاصة متزودة في ذلك بمواد قادمة من الشرق، فكانت تلك المادة تستقدم لتصنع منها بعض قطع لباس الجند⁽⁵⁷⁾. كما لم يكن القصد من وراء التجارة دوما تحقيق الربح، بقدر ما كان الهدف منها جلب مواد يستطيعها سكان المنطقة أو يفتقدونها، وعلى رأسها البضائع المصنعة، وهذا ما يشير إليه مارسي بقوله "إن السلع المستوردة من وراء البحر كانت أقل إنتاجا للثروات، لكنها زوّدت تلمسان ببضائع مصنوعة"⁽⁵⁸⁾.

6. خاتمة:

إن المكانة التجارية التي اكتسبتها مملكة تلمسان بصفة خاصة والمغرب الأوسط بصفة عامة وضعف أمرائها من جهة أخرى انتهى بها إلى أن تكون محل صراع بين قوتين متناقضتين توجّهها وهما الأتراك العثمانيون الذين بدؤوا ينقلون وجودهم ونشاطهم تدريجيا من الحوض الشرقي إلى الحوض الغربي للمتوسط وبين إسبانيا الحديثة التي تشكلت من توحيد إمارتي قشتالة وأراغون وكذا البرتغال وصممت على ملاحقة أهل الأندلس والانتقام من بلاد المغرب التي احتضنتهم فكانت النتيجة أن فقدت المنطقة حيويتها ومكانتها التجارية، فعلا لقد تأثرت مملكة بني زيان بهزّات أثرت في حركيتها وحيويتها التجارية بداية بأزمة القرن الرابع عشر حيث سيطر التجار الأوروبيون على البحر المتوسط واكتشفوا طرقا بديلة عبره أفقدت المغرب الأوسط والمغرب الإسلامي بشكل عام دوره كوسيط تجاري بين الشمال والجنوب.

كما أن القوة -الجزائرية- كانت تعتمد حتى خضوعها للأتراك على المؤسسات المالية السلمية، وأن المصادر الطبيعية للدولة كانت تسير في مثل تلك الطريقة للمحافظة على نظام مركاتيلي أعطاه استقرارا في التوازن التجاري وفي الإنتاج الكافي خلال الفترة السابقة لأيام الأتراك، وأنّه إضافة إلى المصادر المالية الثلاثة المتمثلة في الهدايا والحمولات والجزيات التي يدفعها الأوروبيون والمساعدات العثمانية كان هناك استمرار لتجارة شرعية كانت تقوم بها الموانئ الجزائرية لخروج المنتجات الداخلية للبلاد على حد تعبير وليام سبنسر، وأنها أي مملكة



تلمسان لم تنقطع عن كونها ساحة مرور تلتقي فيها المواد الأوروبية المصنعة من أقمشة وأسلحة بـمواد المغرب والسودان الغربي وذلك حتى في ساعات الأزمات الخطيرة.

الهوامش:

1. هو ما كان من الذهب غير مضروب، فإذا ضرب دنائرا فهو عين، ولا يقال تبرأ إلا للذهب، وبعضهم يقوله للفضة، انظر الرازي محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة خاصة مدققة، 1986، ص31.
- 2- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية لبنان، ط1، 2002، ص140.
- 3- نفسه، 186.
- 4- نفسه، ص188-208.
- 5- يحيى بوعزيز: تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر 2006، ص24.
- 6- Latrie Mas : traites de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabe de L'Afrique septentrionale au moyen âge, Paris ' H.P, imprimeur - éditeur 1886, p81.
- 7- ابن خلدون عبد الرحمن: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت 2000، ص77.
- 8- ابن الخطيب لسان الدين: معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2002، ص184.
- 9- عبد الله بن الصباح الأندلسي (المدجن): نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار (رحلة حجازية)، تحقيق جمعة شيخة، المطبعة المغربية للطباعة والنشر والإشهار، الشرقية، تونس 2012، ص57.
- 10- كريخال مارمول: إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حيي وآخرون، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1989-1988، ص295.
- 11 - نفسه، ص33.
- 12- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حيي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ص327.
- 13- نفسه، ص9.
- 14- مارمول كريخال: المصدر السابق، ص296.
15. نفسه، ص296.
- 16- نفسه، ص296-297.
- 17 - نفسه، ص302.
- 18- الحسن الوزان، المصدر السابق، صص 3، 19، 20.



- 19- نفسه، ص 93-94.
- 20 - يحيى بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق ألفرد بل ، المطبعة الشرقية، بيار فونطانا، الجزائر 1903، ص 20-21، انظر أيضا يحيى بوعزيز: المرجع السابق ، ص 30.
- 21- عبد العزيز فيلاي: تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 2002، ص 138.
- 22 - Mas Latrie : opcit,p183.
- 23 - Dufourcq, CH.E:l'Espagne catalane, Paris -France 1966,p134.
- 24-Bautier'R.H:les relations commerciales entre l'Europe et l'Afrique du nord et l'équilibre économique méditerranéen du XIIème au XIVème siècle, Bulletin philologique et Historique,1953, 399-416.
- 25-الحسن الوزان: المصدر السابق ، ص 7.
- 26- المدجن: المصدر السابق، ص 59.
- 27 - الحسن الوزان: المصدر السابق، ص 8.
- 28- هو عبد الرحمن بن موسى، حكم ما بين 718/1318-737/1337 وهو السلطان الخامس في ترتيب سلاطين بني عبد الواد.
- 29- المدجن: المصدر السابق، ص 54.
- 30- مارمول كريخال: المصدر السابق، ص 302.
- 31 - المدجن: المصدر السابق، ص 59.
- 32- المقرئ أحمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ووزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط 1، 1988، ص 205.
- 33- الوزان: المصدر السابق، ص 10-12.
- 34- نفسه، ص 8.
- 35- مارمول كريخال: المصدر السابق، ص 292.
- 36- المدجن، المصدر السابق، ص 60.
- 37- مارمول كريخال، المصدر السابق، ص 300.
- 38- نفسه، ص 300.
- 39- Vernet,op.cit,p.34.
- 40- ابن سعيد(أبي الحسن): كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 2، 1982، ص 144.
- 41 - الطمار محمد عمرو: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 248.
- 42-Sari Djilali, la renaissance d'un ancien débouché d'or transsaharien- honaine, opu, Alger 1986,p33.



- 43- كولستو، ج: المرجع السابق، ص.112
44- توفيق المدني: المرجع السابق، ص.37
45- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص.30
46- ابن خلدون يجي: المصدر السابق، ص.22
47- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص.30.
48- Sari,Djilali :op.cit, p33.
49-ibid,p33.
50- الوزان: المصدر السابق، ص.9
51- نفسه: ص45
52- بوزيان الدراجي: المرجع السابق، ص.21
53 -Mas Latrle :op.cit., pp 2-325-326.
54- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، ط1980، 4، ص.186
55- المقري التلمساني: المصدر السابق، ص.205
56- جورج مارسي: مدن الفن الشير-تلمسان ، موقان، البلدية، الجزائر2004، ص.99
57 - الحسن الوزان: المصدر السابق، ص.21
58- جورج مارسي: المرجع السابق، ص.48